بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

د. محمد الكتاني

عضو أكاديمية المملكة المغربية

لابد في تقديم هذا الكاتب عن نظرية حازم القرطاجني من استحضار مجمل السياق النقدي للشعر، منذ بدايته المعروفة على يد الفيلسوف اليوناني أرسطو، لمعرفة الموقع الذي يحتله الناقد العربي حازم القرطاجني في هذا السياق، الممتد بين مختلف الآداب، ولا سيما بين النقد اليوناني والنقد العربي. وهنا نتساءل: أو لم يكف حازما أن يعتمد على ما تراكم من آراء نقدية حول الشعر على يد النقاد العرب قبله، ليصوغ منها نظرية خاصة عن الشعر العربي؟ ويأتي الجواب في تضاعف كتاب حازم "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" واضحا.وهو أنه كان يتغيأ تأسيس علم مطلق للشعر، من حيث هو ضرب من ضروب التعبير الغني عن ذات الإنسان في كل الآداب. أي أنه كان ذا نزعة فلسفية واضحة، تبحث عما هو عام ومشترك بين أشكال الشعر الإنساني، وعن المبادئ العامة التي تؤسس "القول الشعري" على قواعد من الفطرة الإنسانية والآليات اللغوية والموسيقى الشعرية، صحيح أن الإرث النقدي العربي، الذي وجده حازم بين يديه كان وافرا متعدد المذاهب، لكنه لم يكن قد بلغ المبلغ الذي يجيب عن تساؤلات، كتلك التي طرحها حازم على نفسه. يضاف إلى ذلك أن التراث اليوناني الفلسفي كان قد ترجم إلى اللغة العربية، وأثر في عدد من علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية والكلامية، وأعني بالخصوص علم المنطق، وعلم البلاغة. وفي سياق هذه الترجمات تمت ترجمة كتاب الشعر لأرسطو.

ومما لاشك فيه أن حازما تأثر بنظرية أرسطو عن الشعر بعد قراءتها قراءة تمعن، وأكمل تفريعها على نحو يجعله يحيط بظاهرة الشعر العربي، وينفذ إلى قوانين شعريته، متجاوزا في أحيان كثيرة، ما كان متداولا لدى شراح أرسطو الكبار، أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد، وهو يغوص في البعد النفسي لمبدع الشعر ومتلقيه على حد سواء أو نافذا إلى عمق العلاقة بين الأغراض الشعرية والموسيقى الشعرية، بما يناسب الشعر العربي، متجاوزا في هذا المجال، كل ما كان قد كتبه نقاد سابقون في الموضوع أمثال قدامة ابن جعفر.

وجوهر فلسفة أرسطو عن الشعر، أنه فن يقوم على المحاكاة. فقد تعمق الفيلسوف اليوناني ما أبدعه شعراء الإغريق، ناظرا في بداياته ونهاياته، ملاحقا أطواره في النضج والاكتمال، فخلص إلى أن الشاعر يحاكي الطبيعة، فيما يبدعه بواسطة اللغة. وقد كان أستاذه أفلاطون يعتبر اللغة محاكاة للأشياء التي ندركها، والتي هي بدورها محاكاة للصور المجردة الكامنة في عقولنا عنها. إلا أن أرسطو انطلق من واقع الظاهرة الشعرية عند الإغريق، لبناء نظريته عن الشعر، كفن من الفنون، متميز بخصائصه اللغوية. بينما انطلق أفلاطون من المثال العقلي الذي ينشئه العقل عن الشعر ومن هذا المثال يتأسس في رأيه النظر النقدي إلى الشعر، وإليه يقاس كل ما يبدعه الشاعر، وبذلك يمكن القول بأن أرسطو كان رائدا للمنهج الوصفي في نقد الشعر، كما كان أفلاطون رائدا في المنهج المعياري.

وإذن فقد كان أرسطو ناقداً للشعر بالمعنى الأقرب للنقد كما نأخذ به اليوم، لأنه أسس نظرية متكاملة عن الشعر الإغريقي بكل أنواعه، مستخلصا طبيعته وقوانينه الشعرية، التي هي مادة مشتركة بين الشعر والخطابة، لاعتمادهما معا على التخييل، لإثارة النفس وتحريكها في الاتجاه الذي يريده الشاعر والخطيب.

كان لابد أن نذكر القارئ بهذه المسائل، في تقديمنا لهذا الكتاب الذي نعتبره دراسة غير مسبوقة عن الناقد العربي حازم القرطاجني. هذا الناقد العملاق الذي تجاوز مستوى ما كان يتداوله نقاد بلاغيون قبله، جعلوا وكدهم النظر في قضايا جزئية من قبيل المقارنة بين اللفظ والمعنى، أو بحث التشبيه والمجاز، أو تعقب السرقات الأدبية. تجاوز حازم ذلك لينظر في أصول الظواهر الشعرية بمنهج شمولي، لا يأخذ إلا الفلاسفة في العادة. فتعمق ظاهرة الشعر العربي، وتقرى دوافعها وفكك علاقاتها البنيوية، طامحا إلى إنجاز نظرية عن علم الشعر المطلق، من حيث هو نمط من القول، ليس خاصا بأدب من الآداب، وهذا ما جعله يرتاد ميادين لم يكن قد وقف عليها ناقد عربي قبله، بمثل هذا التفصيل والتعمق الذي جاء في كتابه (منهاج البلغاء) كالذي قاله عن بواعث الشعر، وعن أجناس معاني الشعر، وعن هذه المعاني باعتبارها خاصة بالشعر، متميزة عن أي معان قولية أخرى. وانتهى كما أشرنا من قبل إلى القول بالمحاكاة. لكن بصورة مدققة ومفصلة وشاملة.

ومن جملة ما كان قد عبر عنه من آراء نقدية هامة حول الشعر: أنه يجب أن تكون أعراق المعاني في الصياغة الشعرية هو ما اشتدت علاقته بطبيعة الإنسان، أو اشتدت الدواعي النفسية إليه، وكان أدخل في خصوصيات كل فرد فرد، مما فطرت عليه النفوس، وقويت فيه دواعي اللذة أو الألم، الانجذاب أو النفور. وأن قوام القول الشعري هو التخييل بالمعنى الأوسع. بيد أن حازما نظر إلى التخييل والمحاكاة معا باعتبارهما وجهين للعملة الواحدة. فالمحاكاة في القول الشعري هي أفضل ما يعبر عن طبيعة عمل الشاعر، ومنحاه في صوغ الشعر. أما التخييل فهو أفضل ما يعبر عن طبيعة المتلقي، الذي يهتز للشعر من حيث توافره على ما يثير

خياله، أو يستدعي انجذابه، إما من جهة المعاني أو من جهة الأسلوب، أو من جهة الايقاع والموسيقى الشعرية.

وبقدر عمق التحليل المستفيض الذي قدمه حازم لكل هذه المبادئ مع إيغاله في مكونات القول الشعري إلى جانب تعقيد أسلوبه وكثافته، بقدر ما كان الأستاذ حافظ الروسي، الذي أنجز هذا البحث مستوفيا لكل جوانب نظرية حازم، متمكنا من ناصيتها، وهو يقدمها لقرائه في هذا الكتاب.

وأعتقد بادئ ذي بدء أن الاقدام على إنجاز بحث أكاديمي بهذا المستوى الرفيع، الذي يستهدف صياغة مشروع حازم عن ظاهرة الشعر، تنظيرا ونقدا، فيه ضرب من المجازفة، لا سيما إذا علمنا أنه قد أنجز عمله في اطار تقديمه كأطروحة جامعية، لنيل دكتوراه الدولة، وأنه كان يعلم أن عملا من هذا القبيل سيكون متبوعا بالمناقشة العلمية الصارمة، التي لا تعرف المجاملة. وهذا موطن المجازفة، التي استطاع الأستاذ حافظ الروسي أن يحولها إلى إنجاز ملموس بلغ في تحقيقه من النجاح ما سيقف عليه القارئ ويقدره حق القدر.

وقد أوضح الباحث نفسه في مقدمة أطروحته مدى الصعوبة في دراسة نص حازم، التي جعلت من الدارسين قبله، وإن اقتحموا مسالكه، يقتصرون فقط على بعض قضاياه أو جزئياته. لذلك عندما اقترح عليَّ موضوعه قبل سنوات، للاشراف عليه خامرني الإشفاق عليه. لكن سرعان ما تبدد إشفاقي بعد الجولة الأولى من قراءته للنص، وتقديم خلاصة ما انتهى إليه في هذه القراءة. لقد كان الباحث قد روض نفسه على قراءة الأدب القديم ونقده ولذلك لم أثنه عن رغبته في اقتحام هذا الطود الشامخ، في نقدنا العربي القديم، علما مني بأنه قد أعد نفسه لهذا الإنجاز الكبير. وإن كنت قد عبرت له يومئذ عن المصاعب التي عليه أن

ينتظرها في قراءة كتاب حازم، برغم كونه كان محققا تحقيقا جيدا من لدن صديقنا الدكتور الحبيب بلخوجة منذ أكثر من ربع قرن.

لكنه وطن نفسه على اقتحامه. والواقع أن استخلاص المشروع التنظيري لحازم كاملا من هذا النص هو ما لم يجرؤ أحد من الدارسين عليه من قبل، وعلى النحو المطلوب، باستثناء ما لم أطلع عليه من الدراسات وفي مقدمتها بحث الدكتوراه نوال الإبراهيم عن نظرية الشعر عند حازم، باللغة الانجليزية.

وقد يقال إن مما يسر على الباحث مسالك البحث هو المكتبة الأدبية المؤلفة عن حازم القرطاجني، وهي غنية بالأبحاث والمقالات التي تكاد تستقصي جوانب النظرية الشعرية عنده، بل ربما جاز القول بأن هذه المكتبة النقدية والتاريخية هي التي أغرت الباحث باختيار هذا الموضوع، لكن ذوي الاختصاص في البحث الأدبي والدراسات النقدية يعلمون أن وفرة المصادر والمراجع لا تكون دائما في صالح الباحث الجاد، بل ربما تحولت إلى غابة لقاء، يتيه فيها الباحث، ولأن تلك الوفرة تلقى على الطالب الباحث مسؤولية "مضاعفة" تتمثل في ضرورة الانكباب على استيعاب كل ما كتب. وضرورة إضافة الجديد إليه.

لكن، ما يجب التنبيه إليه في هذا الصدد هو أن الباحث انطلق من قراءته الخاصة للنص، قبل اطلاعه على تلك المكتبة، وأعاد قراءته بعد اطلاعه عليها، ليوازن ويتحرى ويحقق مسائله، بل كان عليه أن يقرأ نص حازم قراءة يوظف فيها ما انتهت إليه المناهج النقدية من تطور، وهي قراءة ليست بالأمر السهل – ونحن نعلم – أن قراءة كتاب "منهاج البلاغة" محفوفة بالمزالق، لسببين: